

ادعاء النسب الشريف بين التوظيف الديني والاستغلال السياسي

• وائس صلاح الدين

• جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف Salahd81@gmail.com

تاريخ النشر : 2018/10/04

تاريخ القبول : 2018/07/13

تاريخ الارسال : 2018/05/17

الملخص: شاع في المجتمع الجزائري في العصر الحديث، ظاهرة ادعاء النسب الشريف (الانتساب لآل البيت)، بشكل ملفت للنظر ومثير للتساؤل، وهي ظاهرة وافدة من المغرب الأقصى الذي يعد منشأ الظاهرة ومصدرها الأساسي، فكان بعض شرفاء الجزائر يدعي انتسابه إلى شرفاء أحد مدن المغرب كناس أو مكناس أو الساقية الحمراء، وقد انتحل هذه الصفة خلق عظيم، من خاصة القوم ومن عامتهم واستصدروا وثائق ثبوتية لذلك، وكان يكفي لكي تكون شريفاً أن تدفع بعض المال لأي قاض حتى يكتب لك الشجرة العرشية المنتحلة. ويشير بعض الدارسين إلى خطورة الأمر وتفاقمه خلال فترة الاحتلال الفرنسي حيث تضاعف العدد إلى أضعاف مضاعفة "لأشرف"، مما يستدعي منا كدارسين للوقوف على الظاهرة محاولين معرفة أسبابها ومسوغاتها الدينية ودلالاتها الأخلاقية، وأبعادها وآثارها السياسية.

الكلمات المفتاحية: النسب، الشريف، التوظيف الديني، الاستغلال السياسي، آل البيت، المغرب، الاحتلال الفرنسي.

Proclamation of the noble lineage between the religious employment and political exploitation.

Abstract: In the Algerian society in modern times, the phenomenon of allegiance to the family of Al-Bayt is striking and questionable. This phenomenon came from the Maghreb, which is considered as the origin and source of it. Some of the honorable people of Algeria were claiming that they are belonging to the honorable people of one of the cities of Morocco like Fes, Meknès or Sakia el Hamra. This was prohibited by many people, from General and special people, and they produced identified documents for this. Forasmuch, it was enough to be among the honourable people to pay some money to any judge to write for you the prohibited tree of arush. Some scholars point to the seriousness of the matter and exacerbate it during the period of the French occupation, where the number doubled and doubled "for the honorable people", which requires us as scholars to identify the phenomenon trying to know its reasons, its religious justification, its moral implications and its dimensions and political implications.

Keywords: descent, Sharif, religious employment, political exploitation, Al-Bayt, Morocco, French occupation.

مقدمة:

وقف الإسلام من علم النسب موقفاً إيجابياً فاكسب هذا العلم فضلاً وشرفاً تمثل بعناية رسول الله وحث صحابته على تعلمه، وشهادته لبعض اصحابه بالتمكن من هذا العلم. لكن الإسلام نهى عن سوء استخدام الأنساب، والمفاخرة بها وكان علم النسب في البداية واحداً من فروع علم التاريخ ثم ما لبث أن صار علماً مستقلاً له أصوله وفنونه وأربابه. وانبرى للاشتغال به كثير من علماء الأمة امتداداً لاشتغالهم بعلم التاريخ الذي لا يستغني عن علم الأنساب والإحاطة به لمن أراد أن يعرف أمته وأعلامها من الصحابة والتابعين والقادة والفاحين والعلماء والمحدثين وغيرهم. وقد تواتر عن علماء الأمة التأكيد على أهمية هذا العلم، وبسطوا القول في فضله والترغيب به في مقدمات مؤلفاتهم في الأنساب. وامتد هذا الاهتمام إلى عصرنا الحاضر فألف فيه علماء كبار، أو قدموا مؤلفات في الأنساب لغيرهم.

إلا أنه طرأ على هذا العلم في مجتمعنا الجزائري في العصر الحديث ظاهرة غريبة وعادة سيئة ألا وهي: ظاهرة ادعاء النسب الشريف (الانتساب لآل البيت)، بشكل ملفت للنظر ومثير للتساؤل، والتي وفدت إلينا من المغرب الأقصى الذي يعد منشأ الظاهرة ومصدرها الأساسي، فكان بعض شرفاء الجزائر يدعي انتسابه إلى شرفاء أحد مدن المغرب كفاس أو مكناس أو الساقية الحمراء وقد انتحل هذه الصفة خلق عظيم، من خاصة القوم ومن عامتهم واستصدروا وثائق ثبوتية لذلك، وكان يكفي لكي تكون شريفاً أن تدفع بعض المال لأي قاض حتى يكتب لك الشجرة العرشية المنتحلة،

ويشير بعض الدارسين إلى خطورة الأمر وتفاقمه خلال فترة الاحتلال الفرنسي حيث تضاعف العدد إلى أضعاف مضاعفة "لأشراف"، فكيف ظهرت هذه الظاهرة؟ وما هو

مصدرها؟ وكيف انتشرت، وما هي العوامل التي ساعدت على انتشارها؟ وكيف نكبح

جماح تأثيراتها؟ وما هي تأثيراتها على الفرد والمجتمع؟

ومن أجل الوقوف على الظاهرة وفهم أسبابها ومسوغاتها الدينية ودلالاتها الأخلاقية، حاولت أن أتلمس هذا الموضوع بحذر شديد، بما توفر لي من كتب ووقت لارتباط هذه الورقة بالملتقى.

أولاً: النسب الشريف وطريقة اثباته

أ- تعريف النسب لغة: "بفتح النون والسين" نسبُ القَرَابَاتِ وهو واحدُ الأنسابِ، وقال ابن سيده: النسبةُ والنسبةُ والنسبُ القرابةُ وقيل: هو في الآباء خاصةً وقيل: النسبةُ مصدرُ الانتسابِ، والنسبةُ الاسمُ التهذيبُ النسبُ يكون بالآباءِ ويكونُ إلى البلادِ ويكونُ في الصنّاعة⁽¹⁾.

ونسبه نسباً: عزاه، ونسبه: سأله أن ينتسب ونسبتُ فلاناً إلى أبيه أنسبه وأنسبه نسباً إذا رفعت في نسبه إلى جدّه الأكبر قاله الجوهري. نسبْتُ الرجلُ أنسبه بالضم نسبةً ونسباً إذا ذكرتُ نسبه وانتسبَ إلى أبيه أي اعتزى.

العقب لغة: ذكر صاحب اللسان معاني عدة للعقب، منها فيما يخص السياق الذي نحن بصدده قوله: قيل عقبه إذا جاء بعده وعقب هذا إذا ذهب الأول كله ولم يبق منه شيء، وكل شيء جاء بعد شيء وخلفه فهو عقبه⁽²⁾.

والعقبُ والعقبُ والعاقبةُ ولدُ الرجلِ وولدُ ولده الباقيون بعده، وذهب الأخفش إلى أنها مؤنثة وقولهم: ليست لفلان عاقبة. أي: ليس له ولد، وقول العرب: لا عقب له. أي: لم يبق له ولد ذكر، وقوله تعالى: {وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه⁽³⁾} أراد عقب إبراهيم عليه السلام - يعني: لا يزال من ولده من يوحد الله. والجمع أعقاب، وأعقب الرجل: إذا مات وترك عقباً؛ أي ولداً، يقال: كان له ثلاثة أولاد، فأعقب منهم رجلاً: أي تركا عقباً ودرج واحداً، وذهب

فلان فاعقبه ابنه: إذا خلفه، وهو مثل عقبه، وعقب مكان أبيه يعقب عقباً وعاقبة وعقب إذا خلف، وكذلك عقبه يعقبه عقباً - الأول لازم والثاني متعدي - وكل من خلف بعد شيء فهو عاقبة وعاقب له، وذهب فلان فاعقبه ابنه إذا خلفه وهو مثل عقبه، ويقال لولد الرجل: عقبه وعقبه، وكذلك آخر كل شيء عقبه وكل ما خلف شيئاً فقد عقبه⁽⁴⁾.

ب- النسب الشريف في المخيال المغربي: الشرف بالمغرب في الذاكرة الشعبية مرتبط فقط بذرية سيدتنا فاطمة الزهراء عليها الرضوان أي ذرية الحسنين : الحسن و الحسين نجلي رابع الخلفاء الراشدين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فلا يدخل في الشرف سلالات جعفر بن أبي طالب و لا محمد ابن الحنفية و لا بني العباس و لا غيرهما من الهاشميين و الطالبين، فقد استقر في الذهن عندنا أن آل البيت لا يخرجون عن ذرية الريحانيتين (الحسنين) عليهما الرضوان لأن المؤكد و اليقيني و الراسخ لدى عامة المغاربة هو أن النسب النبوي ينحصر في سيدة نساء العالمين كريمة النبي المعظم سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم فهي المخصوصة بانتقال سر أبيها إليها دون غيرها فهي بضعته كما صرح بذلك أبوها عليه السلام فهي منه و إليه لحما و دما و هو منها و فضائلها و مناقبها و ما نسب لها من التكريم الإلهي كل ذلك ركز على ذريتها الطاهرة دون سواها في مسألة إثبات النسب الشريف في بلادنا المغربية⁽⁵⁾ وهذا الكلام له ما يسنده من الناحية الشرعية حيث فسر أغلب العلماء قول الله سبحانه وتعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)، هي لا تقتصر على نساء النبي بل يدخل فيها غيرهم، من ذلك:

ما أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداة وعليه مرط مرحل، من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)

وأخرج مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص قال: ولما نزلت هذه الآية: (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: "اللهم هؤلاء أهلي".

وبناء على هذين الحديثين وغيرهما كثير، فإن علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم داخلون في الآية بنص قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ج- دخول النسب الشريف لبلاد المغرب:

التجأ إدريس إلى المغرب الأقصى فرارا من بطش العباسيين، بعد موقعة فخ، التي قام بها الحسين بن أخيه الحسن المثلث سنة 169هـ/785م، على أرجح الأقوال حسب رأي بن عذارى المراكشي⁽⁶⁾ واستطاع أن يؤسس دولة الأدارسة رغم الصعوبات والظروف الصعبة، لكنه سرعان ما اغتيل من طرف العباسيين على يد الشماخ⁽⁷⁾، فتولى بعده ابنه إدريس الأصغر الذي كان قد تركه جنينا في بطن أمه. وعن إدريس الأصغر انتشرت في معظم بلدان المغرب العربي وانحدرت أسر وفروع الأشراف الأدارسة، حيث خلف اثنا عشر ولدا، ففي الفترة الأولى خرج من مدينة فاس وحدها 70 أسرة توجهوا إلى بلاد غمارة، و12 إلى تادلا، و07 إلى فجيج، وإلى سجلماسة، وإلى السوس، وإلى الساقية الحمراء وغيرها كثير⁽⁸⁾ وبذلك أصبح المغرب الأقصى مصدر ظاهرة الأشراف ومنها انتقل إلى الجزائر وانتشر في كل أرجائها، ولهذا كان بعض شرفاء الجزائر يدعي أنه من شرفاء مكناس أو فاس أو الساقية الحمراء

د- كيفية اثبات النسب الشريف: اختلف المهتمين بهذا الأمر إلى أن النسب الشريف يثبت بأمور عدة

1- بالشهرة: حيث يذهب الورثاني إلى أن النسب الشريف يثبت بالشهرة معتمدا على رأي الأجوري ويقول في هذا الصدد أن: "الناس على ما حازوا من أنسابهم كحيازة الأموال،

يصدق الأنسان شرعا في نسبه إلا إذا كان مشهورا بالعداء والظلم"⁽⁹⁾، وقد فات الورثاني أن الكثير ادعى النسب الشريف رغبة في الحظوة والاعفاء الضريبي وما يحصل له من جراء اثبات النسب من امتيازات جمّة، وقد ردّ عليه ابن مهنا القسنطيني بقوله: "أن الإنسان يصدق شرعا في نسبه" في غير الشرف، بينما الشرف فلا يصدق لأنه نسب ولا يثبت إلا بالدعوى، كما نص عليه بعض العلماء وقد أشار ابن مهنا إلى جماعات ادعت النسب الشريف زورا⁽¹⁰⁾.

2- شهادة القاضي واثباته في ظهير: ومن بين الوسائل الثبوتية التي يثبت بها صاحب النسب نسبه الشريف وهي شهادة القاضي واثبات ذلك في ظهير⁽¹¹⁾.

3- شهادة العلماء: كان العلماء يكتبون للأشراف شهادتهم بالنسب الشريف، ولما أسس الداوي محمد بكداش زاوية الأشراف وضع لها نظاما لتسييرها يرتكز على تعليمات أحدها هي اثبات أو خلع صفة النسب الشريف لا يتم إلا بموافقة الشرفاء البارزين بعد التدقيق في نسب الشخص⁽¹²⁾، ومن شهادة بعض العلماء لإثبات النسب حيث يورد أبي راس الناصري في كتابه "فتح الإله ومننه": انتسابه لآل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شهد له بالنسب الشريف السني والانتماء الحسني، الشيخان المصطفى بن المختار وسيدي عبد القادر بن السنوسي، فقد قال ذلك باللسان وكتبها شهادتهما بالبنان⁽¹³⁾.

ويميز الريسوني بين الشرف الشمسي والشرف العلمي، أما الشرف الشمسي فأصحابه شرفهم ثابت كالشمس في واضحة النهار، فهم لا يحتاجون للإدلاء بحجة أو برهان على نسبتهم النبوية الكريمة، في حين أن الشرف العلمي (بكسر العين و سكون اللام) فأصحابه يصححون نسبهم بالمستندات والأدلة، مقسما الأسر المغربية وصلتها بالنسب الشريف إلى ثلاثة أضراب⁽¹⁴⁾:

1 - هناك من ثبت نسبه الشريف بالأدلة العلمية و البراهين بالاحالة على المراجع و المصادر والمظان والاستناد على الرسوم والوثائق والصكوك والشهادات.

هناك من ثبت عدم نسبه الشريف إما باعتراؤه أو بقيام البرهان الصحيح على عدم نسبته النبوية، وذلك بالاستدلال التاريخي و أعمال المقارنات وإمعان النظر في الشهادات والتأكد من المعطيات وتوظيف ما يمكن من القرائن والحجج.

2- و هناك الضرب الثالث حيث تختلط الأمور ويصعب تمييز الخيط الأبيض من الأسود إما لغياب الأدلة بالمرة و إما بتعارضها و تصادمها و إما باختلاف في تأويلها وتفسيرها و تنزيلها على الواقع، و في هذا الضرب يحسن السكوت بل يتوجب على الانسان ملازمة الحياد و عدم القطع بالنفي أو الاثبات و اسناد الحقيقة إلى علام الغيوب سبحانه و تعالى.

ثانيا: أسباب انتشار ظاهرة ادعاء النسب الشريف في بلاد المغرب

هي ظاهرة قديمة في بلاد المغرب بين القرنين الثاني والثالث الهجريين، كان أول من اشتهر بادّعاءاتها من الحكام الفاطميون، حيث كانوا يحرصون على اثبات حكمهم وتوطيد أركانهم بادّعاءاته، ولم يسلّم لهم العلماء بذلك بل فضحوا أمرهم وبينوا أصل نسبهم اليهودي⁽¹⁵⁾، ثم عرفت انحصارا في دولتهم المهدية، وانبرى لها علماء أفذاذ، وحتى في مدة اقامتهم في بلاد المغرب لم يعرف التشيع طريقا لأهل المغرب بل كان اتباعهم لهم ولاء سياسيا ومصالح مشتركة فحسب، وأكبر دليل ما فعله بلكين بن مناد من تبرمه وتبرأه من العبيديين ومنهجهم الشيعي واقامة دولته بالقلعة واعلانه ولائه للعباسيين السنيين.

لكن بمرور الزمن استطاعت هذه الفكرة أن ترى النور في العصر الحديث ووفدت على المجتمع الجزائري تحت تأثير جملة من العوامل والاضطرابات، حيث عرفت قبولا وانتشارا وشيوعا ملفت للانتباه، يقول صاحب القول الأعم: كثرت دعوى الشرف في أهل هذا الوطن

حتى ادّعاها الذي ما ذهب أبوه في الإسلام ولا جاء⁽¹⁶⁾، ويشير بعض الدارسين إلى هذا العدد الهائل من الأشخاص الذين فعلوا ذلك من جميع المستويات: منهم رؤساء الطرق الصوفية ورجالها الذين دعموا مراكزهم بإدعاء النسب الشريف، فأصبحوا أشرافا في أعين الجماهير وهو ما لم يفعله صوفية القرون السابقة في القرن الرابع عشر⁽¹⁷⁾، واقترن وصف الشريف أو الحسني أو سيدي أو السي بأسماء نسبة كبيرة من الرجال الذين اشتهر أمرهم بين الناس من خلال الفترة الحديثة وفي مقدمتهم العلماء والمرابطين⁽¹⁸⁾، وحاول مدعو النسب الشريف أن يحذوا حذو أصحاب النسب الشريف في الإثبات حتى يضيفوا على هذا الأمر الشرعية والصفة القانونية، فاستصدروا وثائق من القضاء وهذا ما أكده ابن مهنا القسنطيني بقوله: ذكر لي من أثق به أن "بعض قضاة الجزائر في الدولة التركية كان يأخذ خمسين دينارا سلطانيا ويكتب الشجرة لمن أرادها من واحد أو جماعة أو عائلة أو قبيلة ليتخلصوا من الظلم، وذكر لي بعض مشيخة قسنطينة الطاعنين في السن أن مزوار الشرفاء وجد في دفتره من ليسوا بشرفاء"⁽¹⁹⁾، وقد أدت عدّة أسباب لانتشار هذه الظاهر نوردتها في نقاط:

- الرغبة في التعظيم والتوقير وطلباً للمكارم والاحترام: حيث كان الشرفاء في الصدارة لعظمة شرفهم ويحظون باحترام كبير من السلطة، وتقدير وتبجيل من المجتمع.
- إعفاء السلطة العثمانية الحاكمة لهم من التكاليف والمغارم المخزنية المختلفة⁽²⁰⁾.
- تمتع الشريف بسلطة روحية موازية أو تفوق السلطة المحلية، حيث كان للأشراف سلطة أهلية تركز محليا إلى هياكل اجتماعية واقتصادية، تؤطر المجموعات السكانية في مدينة الجزائر، سمحت لهم بإيجاد نوعا من الهياكل التنظيمية والقواعد الاجتماعية السياسية التي كانت هي أساس ممارسة السلطة المحلية⁽²¹⁾.

- الامتيازات المادية والمعنوية المختلفة التي حصل عليها الأشراف، وهكذا أصبحت الشريفة مصدر تجميل و ثراء لصاحبها⁽²²⁾.
- الاضطهاد الذي تعرض له آل البيت في بعض الفترات التاريخية مما دفعهم نحو اللجوء لبعض القبائل المنيعة فمنهم من الحافظ على نسبه ومنهم من انتسب للقبيلة الحامية.
- تضارب المصادر المؤصلة لآل البيت مما ولد فرصة للبعض في ادعاء النسب لعلمهم أن هذا التضارب يؤدي للثشتت وعدم الرقابة.

ثالثاً: ادعاء النسب الشريف المسوغات الدينية والدلالات الأخلاقية

عبر التاريخ الإسلامي، لم يكن الانتساب لـ"آل بيت النبي محمد" مجرد تجميل للواجهة الاجتماعية، بل كثيراً ما كان ذريعة لطلب الحكم أو تثبيت الأقدام في مواقع السلطة. أولاً كمحاولة لاستقطاب التيار الواسع من القائلين بأحقية آل البيت في الحكم، وثانياً لاستغلال ما يعتقد البعض، بغض النظر عن مذاهبهم الدينية، بعصمة أئمة آل البيت عن الوقوع في أخطاء الحكم من ظلم وفساد وغيرهما. وهذه بعض النماذج التاريخية لهذا النوع من ادعاء النسب.

علي بن محمد وثورة الزنج: كان العباسيون خلال التمهيد لإسقاط الحكم الأموي وإقامة دولتهم، يرفعون شعار "الرضا من آل محمد"، ويعتمدون على استقطابهم القطاع الأكبر من الفرع الأكثر شعبية من آل بيت النبي، وهم أبناء الحسن والحسين، ابنا علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، باعتبار أنهم "نسل النبي محمد". وحين أقاموا نظامهم أقصوا هذا الفرع وقمعوه، لهذا قاد هذا الفرع حركات تمرد من حين إلى آخر، انضم إليها المواليون له والمتضررون من سياسات العباسيين، وهو ما شجع رجلاً فارسي الأصل، كان يتكسب من إلقاء شعر المديح في بلاط الخلافة، على أن يدعي لنفسه الانتساب لفرع الحسين بن علي بن أبي طالب، وأن يتخذ البحرين منطلقاً لدعوته إلى الثورة على

العباسيين. بعد إخفاقه في ذلك، توجه إلى البصرة ونشر دعوته تدريجياً مستهدفاً فئة "العبيد السود"، ومدعياً أنه مبعوث إلهي لتحريرهم ورفعهم إلى مصاف السادة. وأنه "المهدي" الذي يُبعث من آل محمد لسحق الظلم ونشر العدل. كان يركز في خطبه البليغة على ما يلقي هؤلاء العبيد من ظلم اجتماعي من سادتهم، ويداعب فيهم روح التمرد والانتقام، أي أنه لعب على وتري الإحساس بالظلم الطبقي، والموالة لآل البيت، بعد أن كان منطلقه دينياً بحتاً

الفاطميون (العبيديون) في بلاد المغرب: على مر التاريخ تعتبر الدولة الفاطمية هي الأقوى ممن أقاموا حكمهم على إعلان الانتساب لآل البيت. فقامت في شمال أفريقيا ثم انتقلت إلى مصر، وبسطت نفوذها على الشام، بين عامي 910 و1171، وهي الأكثر إثارة للجدل حول صحة انتساب خلفائها⁽²³⁾.

وهناك روايتان⁽²⁴⁾:

الرواية التي تقول بزيف نسب الفاطميين، تشير إلى أن رجلاً فارسي الأصل، وفي قول آخر يهودي، اسمه ميمون القداح أسلم ظاهرياً ليتأمر من الداخل على الدين والدولة، وتقرب من إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي كانت له طموحات سياسية. واستغل ميمون القداح دراسته الفلسفة "الأفلاطونية والأسطاليسية"، بحسب الرواة، لصياغة مذهب شيعي يقوم على فكرة الإمامة ويحيطها بالغيبيات.

وبقي القداح وأبناؤه وأحفاده يلزمون ويخدمون دعوة إسماعيل بن جعفر وأبنائه وأحفاده، ثم أزاح أحدهم، أبناء إسماعيل بن جعفر (أئمة الشيعة الإسماعيلية) من الصورة، باعتبار أنه "إمام مستور"، وادّعى لنفسه نسباً علوياً تسمى بـ "عبيد الله"، لينتقل إلى المغرب العربي، ويصبح أول خلفاء الفاطميين هناك قبل نقل مركز الدولة إلى مصر.

أما الرواية المؤيدة لصحة نسب الفاطميين، فتقول إن ثمة خلطاً وقع. فالإمام جعفر الصادق جعل إمامة آل البيت من بعده في ابنه عبد الله وليس ابنه إسماعيل، فلما أرادوا الجهر بدعوتهم الأحقية في الحكم، اتخذوا أسماءً حركية. فكان لقب عبد الله "الميمون"، فوقع ذلك الاختلاط بين شخصية عبد الله بن جعفر الصادق وميمون القداح.

ترجع إثارة مسألة نسب الفاطميين إلى العباسيين، الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة منافس شرس، انتزع منهم مصر والمغرب وحاربهم في الشام، فأطلقوا الفقهاء والقضاة ليطعنوا في النسب الفاطمي. واختلف المؤرخون في أمر هذا النسب، ولم يقر بصحته إلا المقرئزي⁽²⁵⁾ وابن خلدون⁽²⁶⁾، وما زاد الأمر تعقيداً أن الصراع السني الشيعي، كان عاملاً مؤثراً في المسألة، ويلاحظ أن غالبية الكتاب "الإسلاميين" للتاريخ يميلون لنفي النسب الشريف عن الفاطميين بسبب الخلاف المذهبي. كما أثرت مناظرات الفاطميين ودعاتهم حول النسب وتضارب أقوال بعضهم في حسم القضية، يقول ابن خلكان وغيره: أكثر أهل العلم لا يصححون نسب المهدي عبيد الله جد خلفاء مصر، حتى أن العزيز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة، فوجد هناك رقعة فيها: ⁽²⁷⁾

إذا سمعنا نسباً منكراً ❖❖❖ نبكي على المنبر والجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً ❖❖❖ فاذكر أباً بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته ❖❖❖ فانسب لنا نفسك كالطالع
أولا دع الأنساب مستورة ❖❖❖ وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم ❖❖❖ يقصر عنها طمع الطامع

إنّ هذا الإدعاء للنسب الشريف عبر التاريخ ببلدان المغرب كان في الأصل، وقبل أن يصبح أداة نصب ناجعة للحصول على امتيازات سياسية واجتماعية واقتصادية ورمزية ودينية، وسيلة يلجأ إليها الأجانب لإعطاء أنفسهم مشروعية عرقية كبديل عن المشروعية الترابية التي يفتقرون إليها، وذلك بهدف الوصول إلى السلطة والحكم وما يصاحبهما من

امتيازات أخرى. وهذا ما جعل كل طامع في السلطة، وحتى من الأمازيغيين في ما بعد، ينتحل "نسباً شريفاً" إلى أن أصبحت "أشجار النسب الشريف" تشكل، لكثرتها، "غابة" كثيفة في كل البلدان المغاربية.

فقبائل المرابطين الذين يدعون أنهم من الأشراف، رغم أن أصل المرابطين يرجع إلى قبيلة صنهاجة الأمازيغية وهي كانت في الصحراء ثم استقرت في المغرب حيث أسست دولة المرابطين التي حكمت شمال إفريقيا، وعملت على نشر الدين والخير بين الناس.

ولا يمكن أن يكونوا أشرافاً من العرب وفي نفس الوقت ينتسبون إلى المرابطون وصنهاجة التي هي قبيلة أمازيغية. هذا الاستعمال السياسي والنسبي "لنسب الشريف" كانت له آثاره المدمرة على الهوية الأمازيغية للمغاربة. فلأن هذا "النسب الشريف" أصبح مصدراً للحظوة ولامتيازات عديدة، فمن الطبيعي أن يتكاثر مدعو "النسب الشريف"، الذين يعلنون أنهم من أصول عربية "شريفة" طمعا في تلك الحظوة وتلك الامتيازات، وهو ما ساهم في تنكر الكثير لانتمائهم الأمازيغي، وانتحالهم لانتماء عرقي عربي مزعوم، مقترفين بذلك ردّة هوياتية حقيقية بتغيير جنسهم الأمازيغي إلى جنس آخر.

رابع: آثار الظاهرة على الحياة العامة

إن آثار هذه الظاهرة وخيمة جداً على الفرد والمجتمع.

أخلاقياً: ففي ديننا الحنيف كل الآثار النبوية الصحيحة تحكم عليه بالكفر، وتصنفه من زمرة أهل النار، وتنعته بالكاذب، والخائن للأمانة وتطرده من رحمة الله وعضوه لارتكابه هذا الفعل المشين وهو ادّعاءه للنسب الشريف زوراً وبهتاناً، نورد منها:

– الحكم عليه بالكذب على رسول الله: عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن من أعظم الضرأ أن يدعي الرجل إلى غير أبيه، أو يُري عينه ما لم تر، أو يقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل⁽²⁸⁾).

- الحكم عليه بالكفر: عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (ليس من رجل ادعى لغير أبيه - وهو يعلمه - إلا كَفَرَ ، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار)⁽²⁹⁾.

- الحكم عليه بدخول النار: من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من ادعى إلى غير أبيه - وهو يعلم أنه غير أبيه - فالجنة عليه حرام)⁽³⁰⁾.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من ادعى إلى غير أبيه لم يرح الجنة ، وإن ربحها ليجد من مسيرة خمسمائة عام)⁽³¹⁾. والحديث صحيح ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من انتسب إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)⁽³²⁾.

إلى غير ذلك من الأحاديث التي حملها على ظاهرها يحتاج إلى تأويل ، وذلك بالمستحيل له ، أو بأن المراد كفر النعمة ، وإن لم تحمل على ظاهرها ؛ فيكون ورود ذلك على سبيل التغليظ لزجر فاعله ، أو المراد بإطلاق الكفر أن فاعله فعل فعلاً شبيهاً بفعل أهل الكفر⁽³³⁾.

رأي المالكية: فقد ثبت عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال : من انتسب إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم - يعني بالباطل - يضرب ضرباً وجيعاً ويُشَهَّر ، ويحبس طويلاً حتى تظهر توبته ؛ لأنه استخفاف بحق الرسول صلى الله عليه وسلم⁽³⁴⁾.

اجتماعياً: استغلال لمكانة البيت الطاهر من أجل تحقيق المآرب والمصالح فيقع على المجتمع الغبن، وربما قد تكون هذه الظاهرة سبباً في اشاعة الظلم بين أفراد المجتمع ، ممارسة

النسب والاحتياال على الناس وذلك بالتأثير في مشاعرهم لكسب عواطفهم ولاستغلالهم ماديا ومعنويا انطلاقا من حبهم لآل البيت لأناس لا يستحقون ذلك.

سياسيا: قد يكون مدعو النسب الشريف لديهم مخططات سياسية وأجندات خارجية يسعون من خلال هذا الأمر للسيطرة على العالم

وقد يكون هذا الأمر منفذا سريا لدخول الشيعة لبلاد المغرب سعيا منهم لزعزعة الاستقرار والأمن القومي والفكري.

خاتمة

إنّ هذه الظاهرة تجعل من النسب الشريف أمرا رخيصة، ومنتحلا لكل قاص ودان فيستطيع أي منتحل أن يدعى له دون حقّ، وما هي إلا بداية ممنهجة للطعن في نسب النبي صلى الله عليه وسلم لا سامح الله

وفي المقابل تجعل كل نسب من غير الشريف نسبا وضيعا، وهذا ما لا يتوافق مع تعاليم الاسلام الدّاعية إلى احترام الاعراق والأجناس بل حث على تعارفها وتآلفها، قال تعالى: "ياايها الذين ءامنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وقد قرر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه".

أما علاج هذه الظاهرة فلا بدّ أن يقنع كل إنسان بنسبه، لأنه أي إنسان ليست لديه القدرة على اختيار نسبه ولا تغييره في حالة ما لم يعجبه لا سامح الله.

لابد من تفعيل الجانب الأخلاقي والقيمي خاصة الصدق والأمانة، والجانب الردعي العقوبات والمتابعات القضائية، لذلك وحفاظا على النسب الشريف لابد من ايجاد وسائل

علمية بحثة لضبط هذا الانتساب للشرف، وهي بيد الأشراف أنفسهم ممن لا غبار على انتسابهم لآل البيت، وهي:

- البحث في كتب الأنساب وغيرها من كتب التاريخ والتراث والإسلامي، والتمحيص فيها وربط العائلات المذكورة فيها بالعائلات المعاصرة.
- متابعة الحركة الديموغرافية لآل البيت وتنقلهم عبر العصور ضمن الأمصار .
- استخدام الوسائل العلمية الحديثة في إثبات صحة النسب ممن يشك في نسبهم، واقصد هنا فحص الحمض النووي، فلكل عائلة مورثاتها الخاصة ويمكن من خلال اختبار الحمض النووي معرفة أفراد العائلة.

التوصيات:

- وفي الأخير أقدم بعض المواصفات لمن أراد أن يشتغل بهذا الفن، أعرضها في نقاط:
- الكتابة في هذا الموضوع هو ليس بالأمر الهين، خاصة وهو يستشعر النسب الشريف
- يقتضي أن يكون الباحث في هذا الموضوع بصيرا وصبورا ولا يتسرع في استصدار الأحكام
- يشترط أن يكون الباحث في موضوع الدراسة أميناً وصادقاً
- وختاماً لا ازعم أنني غطيت الموضوع من كل جوانبه، وأحطت بما لديه علما بل هناك الكثير والكثير من الجوانب والنقاط عرضت لي وقت كتابة البحث تحتاج مباحث مستقلة ونقاش مستفيض على مؤائد الملتقيات، ولكن حسبي أنني طرقت الباب ولفتت بال الباحثين إلى سبر أغواره واقتحام أسواره.

الاحالات والهوامش:

- 1 - جذر كلمة نسب: المعجم الوسيط هو معجم عربي من إصدار مجمع اللغة العربية، دار الدعوة بالقاهرة، الطبعة الخامسة عام 2011، أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424 هـ): معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، 1429 هـ - 2008 م، ابن منظور: لسان العرب، ج 14، مادة نسب، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، لبنان، (1414 هـ/1994 م)
- 2 - جذر كلمة عقب: المعجم الوسيط، أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ابن منظور: لسان العرب، ج 14.
- 3 - الزخرف: الآية 28
- 4 - جذر كلمة عقب: المعجم الوسيط، أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ابن منظور: لسان العرب
- 5 - الشريف علي بن أحمد بن الأمين الريسوني العلمي الإدريسي الحسني: الأنساب الشريفة بالمغرب، ورقة بحثية عرضت في الندوة العلمية الدولية حول الأنساب الشريفة المقامة في مدينة طرابلس - الجماهيرية الليبية، يناير - 2008
- 6 - ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق احسان عباس، ج 2، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة 1، 1983 م، ص 281.
- 7 - يقال أنه بعثه هارون الرشيد سرا، وهناك قولاً آخر يقول أنه بعثه يحيى البرمكي سرا بغير علم الرشيد
- 8 - ينظر: عبد الكريم الفيلاي: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، شركة تاس للطباعة، القاهرة، ج 2، الطبعة الأولى 2003 م، ص 214.
- 9 - الورثاني: رحلة الورثاني، تعليق بن مهنا القسنطيني، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011 م، ج 1، ص 52، 53.
- 10 - ابن مهنا القسنطيني: تعليقه على رحلة الورثاني، ج 1، هامش 1، ص 53.
- 11 - ابن مهنا القسنطيني: المصدر نفسه
- 12 - محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية 1981 م، ص
- 13 - محمد أبو راس الناصري الجزائري: فتح الإله ومنه، في التحدث في فضل ربي ونعمته، حياة أبي راس الذاتية والعلمية، حققه وضبطه وعلق عليه: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، بدون تاريخ طبع، ص 29، 30.
- 14 - الريسوني: المرجع السابق
- 15 - جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص 268.
- 16 - الطيب بن المختار الغريسي المختاري: القول الأعم، في بيان أنساب قبائل الحشم، بدون تاريخ طبع، ص 329.
- 17 - صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514 - 1830 م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثالثة، 2011 م، ص 24.
- 18 - فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (925 - 1246 هـ/1520-1830 م)، دكتوراه غير منشورة، عن جامعة وهران، كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، اشراف: محمد بن معمر، 1434 - 1435 هـ/2013 - 2014 م، ص 592.
- 19 - ابن مهنا القسنطيني في تعليقه على رحلة الورثاني، ج 1، هامش 1، ص 53.
- 20 - غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 م، مقاربة اجتماعية اقتصادية، دكتوراه دولة غير منشورة، عن جامعة الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، اشراف مولاي بالخميسي، 2000 - 2001 م، ص 140.
- 21 - غطاس عائشة: المرجع نفسه، ص 140.
- 22 - صالح عباد: مرجع سابق، ص 24.
- 23 - عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي أبو الفرج: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1415 هـ/1995 م (15 / 82 - 83) و علي بن

- محمد بن محمد ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الضياء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1407هـ/1987م)، (8/73) إسماعيل بن عمر الدمشقي المتوفى سنة 774هـ، (ابن كثير): البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، منشورات مكتبة المعارف، بيروت - لبنان، 1410هـ/1990م، (11/369)
- 24 - عبد الحليم عويس: قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي، دار الصحو القاهرة، الطبعة الأولى، محرم 1406هـ/1985م، ص3 وما بعدها.
- 25 - انظر تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط، دار صادر، بيروت - لبنان، (1/356).
- 26 - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، إعتناء ودراسة أحمد الزعبي، عين مليلة - الجزائر، دار الهدى، 2009، (ص 121) واعتبر التشكيك في نسبهم بعض مظاهر التوهم في التاريخ.
- 27 - الذهبي في السير (15/168 - 169) وابن خلكان في وفيات الأعيان (5/373) وابن قاضي شعبة في الكواكب الدرية (ص 209)..
- 28 - البخاري في صحيحه برقم (3509) في مناقب قريش
- 29 - البخاري في صحيحه برقم (3508)
- 30 - وللبخاري أيضاً برقم (6767)
- 31 - مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري (2/326)
- 32 - ابن ماجه في سننه برقم (2658) بإسناد صحيح
- 33 - انظر شرح مسلم للنووي (2/57) والفتح لابن حجر (6/540).
- 34 - السهمودي في جواهر العقدين (ص 470 - 471).